

عِلْمُ الدِّفَاعِيَّاتِ المحاضرة ١٠: التناقض والمفارقة أ.ر. سي. سرول

في دراستنا لعلم الدفاعيات، وفن الدفاع عن إيماننا، تناولنا مبادئ المعرفة أو الإيستيمولوجيا الفائقة الأهمية، التي يجب ألا نتفاوض بشأنها أبداً ونحن ندافع عن الإيمان، لأن تلك هي المبادئ التي يساوم فيها الملحدون أو الانتقاديون أو المتشككون في الإيمان المسيحي بوجود الله.

وانتقالاً من المبادئ الأربعة التي ذكرتها قبلاً، وهي قانون عدم التناقض، وقانون السببية، والموثوقية الأساسية للإدراك الحسي، وأخيراً، الاستعمال التشابهي للغة، ندخل الآن مجالاً متصلًا بهذه المبادئ، يحدث فيه كثير من الخلط، لأنه توجد ثلاث كلمات في اللغة نستخدم كثيرًا كما لو أنها مترادفة، في حين أنها ليست كذلك، ويجب التمييز بينها بوضوح. هذه المفاهيم الثلاثة هي: التناقض، والمفارقة، واللغز. هذه الأفكار وثيقة الصلة لدرجة أنه يسهل علينا الخلط بينها. وعندما نخلط بينها، نفع في كثير من المتاعب.

منذ فترة قصيرة، قرأت مقالاً كتبه أستاذ في الفلسفة، لم يكن فقط رافضاً للإيمان المسيحي بوجود الله، بل كان يستهزئ به أيضاً، قائلاً إنه في لب المسيحية العريقة، تكمن عقيدة الثالوث. وذكر في مقاله أنه لا يفهم كيف يمكن لأي شخص عقلائي أن يعتنق المسيحية، تحديداً بسبب عقيدتها عن الثالوث. ثم تابع قائلاً إن فكرة الثالوث منافية للعقل، لأنها تنتهك قانون التناقض. وكان الاتهام كالتالي: أن عقيدة الثالوث تنتهك المنطق وقانون عدم التناقض.

اندهشت حقاً من قراءة ذلك في هذا المقال تحديداً، ليس بسبب سخريته البغض من المسيحية، أو اتهامها بأنها غير عقلانية، لأننا نسمع ذلك طوال الوقت. كما لم يدهشني قول أحدهم إن عقيدة الثالوث متناقضة. بل ما فاجأني هو أن اتهم عقيدة الثالوث بالتناقض ووجه من أستاذ في الفلسفة.

أذكر أنه يمكن للبعض أن يتعلموا في أمريكا، ويحصلوا على درجة الدكتوراه في مجالات مختلفة في أمريكا، دون دراسة مقرر واحد عن المنطق. وفي الواقع، معظم مؤسسات التعليم العالي لم تعد تطلب بالمنطق كمقرر إلزامي. لكن لا أستطيع تخيل أن يحصل أحدهم على درجة علمية في مجال الفلسفة، دون أن يحصل على الأقل على دورة تمهيدية في المنطق، ودون أن يكون على دراية على الأقل بقانون عدم التناقض. وإن كان أستاذ الفلسفة هذا قد درس دورة تمهيدية في المنطق، لكان سيفهم على الأقل أن عقيدة الثالوث المسيحية ليست متناقضة، ولا تنتهك

قانونَ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، لِأَنَّ عَقِيدَةَ الثَّالُوثِ تَقُولُ: اللهُ وَاحِدٌ فِي الجَوْهَرِ وَثَلَاثَةٌ أَقَانِيمَ. هَذِهِ هِيَ الصِّعْغَةُ التَّقْلِيدِيَّةُ لِعَقِيدَةِ الثَّالُوثِ. اللهُ وَاحِدٌ فِي الجَوْهَرِ وَثَلَاثَةٌ أَقَانِيمَ. وَإِنْ حَلَلْنَا ذَلِكَ، سَنَقُولُ إِنَّ اللهَ وَاحِدٌ فِي "أ" وَثَلَاثَةٌ فِي "ب". يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ جِهَةٍ صِفَةٍ مُعَيَّنَةٍ، هُوَ يَتَمَتَّعُ بِالوَحْدَةِ، أَمَّا مِنْ جِهَةٍ صِفَةٍ أُخْرَى مُخْتَلِفَةٍ، فِيهِ تَنَوُّعٌ أَوْ تَعَدُّدِيَّةٌ. فَإِنْ قُلْنَا مَثَلًا إِنَّ اللهَ وَاحِدٌ فِي الجَوْهَرِ وَثَلَاثَةٌ فِي الجَوْهَرِ، فَإِنَّا نَنْتَهِكُ بِهَذَا قَانُونَ عَدَمِ التَّنَاقُضِ. أَوْ إِنْ قُلْنَا إِنَّ اللهَ أَفْنُومٌ وَاحِدٌ وَثَلَاثَةٌ أَقَانِيمَ، فَإِنَّا أَيْضًا نَنْتَهِكُ بِهَذَا قَانُونَ عَدَمِ التَّنَاقُضِ. لَكِنَّ قَوْلَنَا إِنَّهُ وَاحِدٌ فِي أَمْرٍ، وَثَلَاثَةٌ فِي أَمْرٍ آخَرَ، لَيْسَ انْتِهَاكَ لِقَانُونِ المَنْطِقِ هَذَا بِالذَّاتِ.

رُبَّمَا يَنْبَغِي أَنْ نُنْعِشَ ذَاكِرَتَنَا بِتَعْرِيفِ قَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، حَتَّى نَكُونَ أَكْثَرَ حَذَرًا مِنْ أُسْتَاذِ الفَلَسَفَةِ هَذَا، عِنْدَ تَعَامُلِنَا مَعَ تِلْكَ المَسَائِلِ. يَقُولُ قَانُونُ عَدَمِ التَّنَاقُضِ بِبَسَاطَةٍ إِنَّ "أ" لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ "أ" وَلَيْسَ "أ" فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ وَبِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا أَوْ دَاخِلَ العِلَاقَةِ نَفْسِهَا. فَلَا يُمَكِّنُ لِشَيْءٍ أَنْ يَكُونَ نَفْسَهُ وَأَلَّا يَكُونَ نَفْسَهُ فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ وَمِنَ التَّاحِيَةِ نَفْسِهَا. يُمَكِّنُنِي أَنْ أَكُونَ أَبَا وَابْنًا فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ دُونَ أَنْ أَنْتَهَكَ أَيَّ قَانُونِ لِلمَنْطِقِ. لَكِنَّ لَا يُمَكِّنُنِي أَنْ أَكُونَ أَبًا وَابْنًا فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ وَدَاخِلَ العِلَاقَةِ نَفْسِهَا. فَلَا يُمَكِّنُنِي أَنْ أَكُونَ أَبِي، بَلْ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَكُونَ أَبًا لِابْنِي. كَمَا لَا يُمَكِّنُنِي أَنْ أَكُونَ ابْنَ ابْنِي، بَلْ فَقَطْ يُمَكِّنُنِي أَنْ أَكُونَ ابْنَ أَبِي. إِذَنْ، دَاخِلَ إِطَارِ عِلَاقَةِ وَاحِدَةٍ، وَمِنْ جِهَةٍ عِلَاقَتِي بِأَبِي، أَنَا ابْنٌ. وَدَاخِلَ إِطَارِ عِلَاقَةِ أُخْرَى، أَنَا أَبٌ لِابْنِي. إِذَنْ أَنَا أَبٌ وَابْنٌ فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ. لَكِنَّ المُنْفَتَاحَ يَكُونُ فِي الجُزْءِ الثَّانِي مِنَ التَّعْرِيفِ - لَيْسَ مِنَ التَّاحِيَةِ نَفْسِهَا أَوْ دَاخِلَ العِلَاقَةِ نَفْسِهَا.

أَحِبُّ أَنْ أَرُويَ هُنَا قِصَّةَ عَالِمِ لَاهُوتِ أَلْمَانِيَّ كَانِ يُعَلِّمُنَا فِي كَلِّيَّةِ اللّاهُوتِ، وَكَانَ حَفِيدَ لاهُوتِي شَهيرٍ مِنَ القَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ. وَذَاتِ يَوْمٍ، كُنَّا فِي الصَّفِّ، وَأَبْدَى أُسْتَاذُ اللّاهُوتِ الأَلْمَانِيَّ المُلَاحِظَةَ التَّالِيَةَ: "أَيُّهَا السَّادَةُ، اللهُ مُتَعَيِّرٌ تَمَامًا فِي جَوْهَرِهِ، وَاللهُ ثَابِتٌ تَمَامًا فِي جَوْهَرِهِ". سَادَ صَمْتُ مَهيبٍ أَرْجَاءَ الصَّفِّ، وَأَمَكَّنَ سَمَاعَ الطُّلَابِ يَهْمِسُونَ: "هَذَا كَلَامٌ لَافِتٌ وَعَمِيقٌ!" وَخَرَجَ الطُّلَابُ مِنَ الصَّفِّ مُنْبَهَرِينَ مِنْ بَرَاعَةِ هَذَا الأُسْتَاذِ، لِأَنَّهُمْ افْتَرَضُوا مَا يَلِي: "لَا نَسْتَطِيعُ فَهْمَ مَا يَقُولُهُ، لَكِنَّ مِنَ الوَاضِحِ أَنَّهُ هُوَ يَفْهَمُهُ، إِذَنْ لَا بُدَّ أَنَّهُ أَذْكَى مِنَّا". وَوَقَفْتُ فِي البُهْوِ أَضْحَكُ، فَسَأَلُونِي: "مَا الَّذِي يُضْحِكُكَ؟" أَجَبْتُ: "مَا قَالَهُ لِتَوِّهِ عَدِيمِ المَعْنَى وَمُنَافٍ لِلعَقْلِ". "كَيْفَ يُمَكِّنُكَ...؟" فَقُلْتُ: "نَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْجَحَ فِي دَفْعِ النَّاسِ إِلَى تَصَدِيقِ أَيِّ شَيْءٍ إِذَا اتَّخَذْتَ وَضْعِيَّةً مُنَاسِبَةً، وَعَقَدْتَ حَاجِبِيكَ، وَتَكَلَّمْتَ بِصَوْتِ خَافِتٍ". مَثَلًا: "اللهُ مُتَعَيِّرٌ تَمَامًا فِي جَوْهَرِهِ وَثَابِتٌ تَمَامًا فِي جَوْهَرِهِ". هَذَا شَبِيهُ يُوَقُوفِي هُنَا قَائِلًا: "بَلْبَلْبَلْبَلْبَلْبَل". هَذَا كَلَامٌ عَدِيمِ المَعْنَى. فَلَوْ كَانَ اللهُ مُتَعَيِّرًا تَمَامًا فِي جَوْهَرِهِ، لَا يُمَكِّنُهُ فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ وَمِنَ التَّاحِيَةِ نَفْسِهَا أَنْ يَكُونَ ثَابِتًا.

يُذَكِّرُنِي هَذَا أَيْضًا بِمَا حَدَّثَ حِينَ كَانَتْ بُولُ تَيْلِيكُ يَعِظُ فِي شِيكَاغُو، وَقَدَّمَ مَفْهُومَهُ عَنِ اللهِ بِصِفَتِهِ أَسَاسَ الوُجُودِ. وَفِي هَذِهِ المَحَاضِرَةِ عَنِ كَوْنِ اللهِ هُوَ أَسَاسُ الوُجُودِ، قَالَ: "لَا يُمَكِّنُنَا نَسْبُ أَلْفَاظِ بَشَرِيَّةٍ، مِثْلَ الشَّخْصِيَّةِ، إِلَى اللهِ،

لأنَّ اللهَ لَيْسَ شَخْصِيًّا أَوْ غَيْرَ شَخْصِيٍّ، لَكِنَّهُ أَسَاسُ الشَّخْصِيَّةِ". فَرَفَعَ أَحَدُ الطُّلَابِ يَدَهُ وَقَالَ: "د. تيليك". أَجَابَ "ماذا؟" قَالَ: "هَلْ أَسَاسُ الشَّخْصِيَّةِ هَذَا شَخْصِيٌّ أَمْ غَيْرُ شَخْصِيٍّ؟" فَعَضِبَ تيليك وَقَالَ: "قُلْتُ لَكَ إِنَّهُ لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ". لَكِنَّ الفِكرَةَ هِيَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إمَّا هَذَا أَوْ ذَاكَ، لِأَنَّ كَلِمَةَ "غَيْرُ شَخْصِيٍّ" تَعْنِي بِكُمْ تَعْرِيفَهَا كُلِّ مَا هُوَ خَارِجٌ تَصْنِيفِ الشَّخْصِ. وَفِي هَذِهِ الحَالَةِ، عَلَى أَيِّ شَيْءٍ أَنْ يَكُونَ إمَّا شَخْصِيًّا أَوْ غَيْرَ شَخْصِيٍّ. وَهَلْ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ كِلَيْهِمَا فِي الوَقْتِ ذَاتِهِ وَدَاخِلَ العِلَاقَةِ نَفْسِهَا؟ كَلَّا. وَلِهَذَا وَجَدَ قَانُونُ عَدَمِ التَّنَاقُضِ.

مَا يَحْدُثُ فِي عَقِيدَةِ المَالُوثِ لَيْسَ انْتِهَاكَ لِقَانُونِ التَّنَاقُضِ، لَكِنَّهُ مُفَارَقَةٌ. لِتَتَنَاوَلَ الآنَ المَفْهُومَ الثَّانِي المَكْتُوبَ عَلَى السَّبُورَةِ، وَهُوَ المَفَارَقَةُ. إِذَا فُئِمْنَا بِتَجَزِئَةِ هَذِهِ الكَلِمَةِ - سَنَعُودُ إِلَى التَّنَاقُضِ بَعْدَ قَلِيلٍ، لَكِنَّ لِنُنظِرِ الآنَ إِلَى المَفَارَقَةِ، وَنَدْرُسُ كَلِمَةَ *paradox* لَعُويًّا. فَهِيَ مُؤَلَّفَةٌ مِنْ بَادِئَةٍ وَجَذْرِ البَادِئَةِ "*para*" مَعْنَاهَا فِي اللُّغَةِ اليُونَانِيَّةِ "مَا يَقَعُ بِجَانِبِ شَيْءٍ آخَرَ". فَلدَيْنَا مَثَلًا كَلِمَةُ "بارابيليو"، وَمَعْنَاهَا "يُلْقِي الشَّيْءَ جَانِبًا"، وَمِنْهَا جَاءَتْ كَلِمَةُ "*parable*" أَوْ مَثَلٌ. فَعِنْدَمَا كَانَ يَسُوعُ يَرُوي قِصَصًا لِتَوْضِيحِ فِكْرَتِهِ، كَانَ يُقَدِّمُ رِسَالَتَهُ، ثُمَّ يُلْقِي بِالقِصَّةِ جَانِبًا لِيُفَسِّرَهَا. هَذَا هُوَ مَعْنَى المَثَلِ. سَمِعْتُمْ أَيضًا عَنْ "*paramedics*"، أَوْ "*paralegals*" أَوْ "*paraministries*"، وَهِيَ عِبَارَةٌ عَنْ مُؤَسَّسَاتٍ أَوْ أَشْخَاصٍ يَعْمَلُونَ إِلَى جَانِبِ شَخْصٍ آخَرَ أَوْ مُؤَسَّسَةٍ أُخْرَى. هَذَا مَا نَفْهَمُهُ مِنَ البَادِئَةِ "*para*" - وَمَعْنَاهَا بِجَانِبٍ أَوْ بِجَوَارٍ. أَمَّا الجُذْرُ "*dox*" فَيَأْتِي مِنَ الفِعْلِ اليُونَانِيِّ "*dokein*"، وَمَعْنَاهُ "يَبْدُو" أَوْ "يَعْتَقِدُ" أَوْ "يُظْهِرُ".

كَانَتْ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ أَهْمِيَّةٌ كَبِيرَةٌ فِي تَارِيخِ الكَنِيسَةِ الأُولَى. فَوَاحِدَةٌ مِنْ أَحْبَبِ الهَرْطَقَاتِ الَّتِي هَدَدَتْ مَسِيحِيَّةَ القَرْنِ الأَوَّلِ هِيَ الهَرْطَقَةُ التَّابِعَةُ مِنَ الغُنُوسِيَّةِ، وَتُدْعَى "الدُّوسِيَّةِ"، كَمَا يُسَمِّيهَا البَعْضُ، وَالَّتِي عَلَّمَتْ مِنْ مَنظُورٍ يُونَانِيٍّ بِأَنَّ يَسُوعَ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ جَسَدٌ مَادِّيٌّ حَقِيقِيٌّ، أَوْ نَاسُوتٌ حَقِيقِيٌّ، لِأَنَّ العِثْرَةَ الكُبْرَى لليُونَانِيِّينَ لَمْ تَكُنْ هِيَ القِيَامَةُ بَلِ التَّجَسُّدُ، لِأَنَّهُ بِحَسَبِ الفِكرِ اليُونَانِيِّ، إِنْ حَدَثَ وَتَلَامَسَ مَا هُوَ رُوحِيٌّ مَعَ مَا هُوَ مَادِّيٌّ، تَلَوَّثَ، لِأَنَّ المَادِّيَّ، بِفِعْلِ مَادِّيَّتِهِ، لَيْسَ كَامِلًا. وَبِالتَّالِي، لَمْ يَسْتَطِعِ اليُونَانِيُّونَ اسْتِيعَابَ الفِكرَةَ اليَهُودِيَّةَ عَنْ كَوْنِ اللهِ كَائِنًا رُوحِيًّا، اتَّخَذَ نَاسُوتًا، وَاتَّخَذَ بِنَاسُوتٍ احْتَوَى عَلَى جَسَدٍ. وَقَالَ هُؤْلَاءُ فِي عَصْرِ الكَنِيسَةِ الأُولَى إِنَّ يَسُوعَ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ جَسَدٌ بَشَرِيٌّ حَقِيقِيٌّ، بَلْ فَقَطْ بَدَا وَكَانَ لَدَيْهِ جَسَدًا بَشَرِيًّا. فَقَدْ بَدَا ظَاهِرِيًّا كَمَا لَوْ أَنَّ لَدَيْهِ جَسَدًا بَشَرِيًّا. لَكِنَّ فِي الوَاقِعِ، كَانَ هَذَا مُجَرَّدَ وَهْمٍ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَدَيْهِ جَسَدٌ بَشَرِيٌّ. أَتَذْكُرُونَ كَيْفَ رَدَّ يُوْحَنَّا عَلَى ذَلِكَ فِي رِسَالَتِهِ، فِي حَدِيثِهِ عَنْ ضِدِّ المَسِيحِ وَمَا يُنْكَرُهُ ضِدِّ المَسِيحِ؟ فَقَدْ قَالَ إِنَّ المَسِيحَ جَاءَ "كَاتَا سَارْكَا"، أَي "فِي الجَسَدِ". وَقَالَ إِنَّ هَذَا هُوَ رُوحٌ ضِدِّ المَسِيحِ. إِذْنِ، نَظَرِيَّةُ الدُّوسِيَّةِ، الَّتِي أَنْكَرَتْ حَقِيقَةَ جَسَدِ يَسُوعَ البَشَرِيِّ، اعْتَبَرَهَا كِتَابُ العَهْدِ الجَدِيدِ لَيْسَ فَقَطْ هَرْطَقَةً، بَلْ هِيَ نَابِعَةٌ مِنْ ضِدِّ المَسِيحِ نَفْسِهِ.

وَهَذِهِ هِيَ الْكَلِمَةُ نَفْسَهَا هُنَا الَّتِي مَعْنَاهَا "يَبْدُو" أَوْ "يَعْتَقِدُ" أَوْ "يَظْهَرُ". وَبِذَلِكَ، فَالتَّعْرِيفُ الَّذِي نَسْتَخْلِصُهُ هُوَ أَنَّ الْمُفَارَقَةَ هِيَ شَيْءٌ يَبْدُو، لِلْوَهْلَةِ الْأُولَى، أَوْ حِينَ نَسْمَعُهُ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، مُتَنَاقِضًا، أَيْ يَبْدُو كَمَا لَوْ أَنَّهُ تَنَاقُضٌ. لَكِنْ إِذَا أُعْطِينَاهُ فُرْصَةً ثَانِيَةً، وَفَحَصْنَاهُ عَنْ كَثْبٍ، سَنُذْرِكُ أَنَّهُ فِي الْوَاقِعِ لَيْسَ تَنَاقُضًا. قَالَ يَسُوعُ إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَحْسَرَ حَيَاتَكَ حَتَّى تَجِدَهَا. وَإِنْ كَانَ يَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنَّكَ يَجِبُ أَنْ تَحْسَرَهَا فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ وَمِنْ النَّاحِيَةِ نَفْسِهَا الَّتِي تَجِدُهَا فِيهَا، لَكَانَ كَلَامُهُ هَرَاءً. لَكِنْ كَانَ رَبُّنَا يَقْصِدُ أَنَّكَ عَلَيْكَ، مِنْ نَاحِيَةٍ، أَنْ تَحْسَرَ حَيَاتَكَ حَتَّى تَجِدَهَا مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى. وَالْعَهْدُ الْجَدِيدُ مَلِيءٌ بِهَذَا التَّوَجُّعِ مِنَ التَّضَرُّيحاتِ. تُوجَدُ الْكَثِيرُ مِنَ الْمُفَارَقَاتِ الْمُمَاثِلَةِ فِي تَعْلِيمِ الْعَهْدِ الْجَدِيدِ، وَلَا سِيَّمَا فِي تَعْلِيمِ يَسُوعَ. فَيَنْبَغِي أَنْ نَمُوتَ كَيْ نَحْيَا. يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّنَا يَجِبُ أَنْ نَمُوتَ مِنْ نَاحِيَةٍ، لِتَحْيَا مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى. إِذَنْ، مَعَ أَنَّ هَذِهِ التَّضَرُّيحاتِ قَدْ تَبَدُّو مُتَعَارِضَةً حِينَ نَسْمَعُهَا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، إِنْ أَمَعْنَا النَّظَرَ فِيهَا، نَكْتَشِفُ أَنَّهَا لَيْسَتْ مُتَنَاقِضَةً. أَعْتَرَفُ بِأَنَّ صِيعَةَ عَقِيدَةِ الثَّالُوْثِ الْقَائِلَةِ إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ فِي الْجَوْهَرِ وَثَلَاثَةٌ أَقَانِيمَ، حِينَ نَسْمَعُهَا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، قَدْ تَبَدُّو مُتَنَاقِضَةً، لَكِنْ إِذَا فَحَصْنَاهَا، وَأَخْضَعْنَاهَا لِقَوَاعِدِ الْمَنْطِقِ الْفِعْلِيَّةِ، سَتَرَى أَنَّهَا تَجْتَازُ الْاِخْتِبَارَ بِنَجَاحٍ، وَبِامْتِنَانٍ، إِنْ جَاَزَ التَّعْبِيرُ.

هَذَا التَّمْيِيزُ بَيْنَ التَّنَاقُضِ وَالْمُفَارَقَةِ، بِحَسَبِ التَّارِيخِ، تَمْيِيزٌ وَاضِحٌ، لِدَرَجَةِ أَنَّنا إِنْ فَهَمْنَا الْفَرْقَ بَيْنَ الْكَلِمَتَيْنِ، لَنْ نَتَعَثَّرَ فِي الصُّعُوبَاتِ الَّتِي يُوَاجِهُهَا الْكَثِيرُونَ. لَكِنْ لِلْأَسَفِ، يُوجَدُ مُصْطَلَحٌ آخَرٌ لَمْ أَكْتُبْهُ عَلَى السَّبُورَةِ، يَمِيلُ إِلَى زِيَادَةِ الطِّينِ بَلَّةً، وَلَا سِيَّمَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَسِيحِيِّينَ، وَهُوَ كَلِمَةُ "طَبَاقٍ" *antinomy*. الْكَثِيرُ مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ لَمْ يَسْمَعُوا قَطُّ بِكَلِمَةِ "طَبَاقٍ"، الْأَمْرُ الَّذِي يُدِينُهُمْ، لِأَنَّهُ قَدْ يَكْشِفُ عَنْ عَدَمِ قِرَاءَتِهِمْ لِلْكَثِيرِ مِنْ كِتَابَاتِ جِي. آي. بَاكِرِ، أَوْ لِمُؤَلَّفَاتِهِ الَّتِي بِعُنْوَانِ "الْكِرَازَةُ وَكَلِمَةُ اللَّهِ"، وَ"السِّيَادَةُ فِي كَلِمَةِ اللَّهِ"، بَلْ وَكِتَابُهُ الْأَشْهُرُ بِعُنْوَانِ "مَعْرِفَةُ اللَّهِ"، لِأَنَّهُ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ، اسْتُخْدِمَ الْمُصْطَلَحُ "*antinomy*" (طَبَاقٍ) بِطَرِيقَةٍ هَزَّتْ قِرَاءَهُ مِنَ الْأَمْرِيكِيِّينَ، لِأَنَّهُ اسْتُخْدِمَ الْمُصْطَلَحُ "طَبَاقٍ" مِثْلَمَا يَمِيلُ الشَّعْبُ الْبَرِيطَانِيُّ إِلَى اسْتِخْدَامِهِ، فِي اخْتِلَافٍ عَنِ اسْتِخْدَامِ التَّقْلِيدِيِّ لُهُ فِي الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ، مِمَّا يُثْبِتُ الْقَوْلَ الْمَأْثُورَ بِأَنَّنا نَحْنُ الشَّعْبَيْنِ الْبَرِيطَانِيِّ وَالْأَمْرِيكِيِّ شَعْبَانِ تَفْصِيلُ بَيْنَهُمَا لُغَةٌ مُشْتَرَكَةٌ.

لَكِنْ فِي الْفَلْسَفَةِ الْقَدِيمَةِ، كَانَ الْمُصْطَلَحُ "طَبَاقٍ" مُطَابِقًا تَمَامًا لِلْمُصْطَلَحِ "تَنَاقُضٍ". يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّهُ بِحَسَبِ الْفَلْسَفَةِ الْكَلَّاسِيكِيَّةِ، الطَّبَاقُ هُوَ تَنَاقُضٌ. تَحَدَّثَ د. بَاكِرِ كَثِيرًا فِي كُتُبِهِ عَنْ وُجُودِ طَبَاقٍ فِي الْإِيمَانِ الْمَسِيحِيِّ. وَكَثِيرًا مَا قَالَ لِي طَلَابِي فِي كَلِمَةِ اللاهوتِ: "لَكِنْ، يَا د. سَبْرُول، يَقُولُ د. بَاكِرِ إِنَّ الْكِتَابَ الْمُقَدَّسَ يَحْوِي طَبَاقًا، وَإِنَّ الْإِيمَانَ الْمَسِيحِيِّ بِهِ طَبَاقٌ". وَحِينَ سَمِعْتُ ذَلِكَ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى قُلْتُ لِنَفْسِي: "لَا يُمَكِّنِي أَنْ أَتَخَيَّلَ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ". ثُمَّ سَنَحْتُ لِي الْفُرْصَةَ لِأَسْأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لَهُ: "هَلْ تَسْتُخْدِمُ الْمُصْطَلَحَ طَبَاقٍ كَمُرَادٍ لِلتَّنَاقُضِ، أَمْ تَسْتُخْدِمُهُ كَمُرَادٍ لِلْمُفَارَقَةِ؟" فَسَارَعَ جُيْبًا إِيَّايَ بِأَنَّهُ قَصَدَ بِهِ الْمُفَارَقَةَ وَلَيْسَ التَّنَاقُضَ.

بَعْدَ تَوْضِيحِنَا ذَلِكَ، يُمَكِّنُنَا الْمُتَابَعَةُ. فَتَارِيحِيًّا، الطِّبَاقُ وَالتَّنَاقُضُ هُمَا وَاحِدٌ، لَكِنَّهُمَا مُشْتَقَّانِ مِنْ لُغَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ. كَلِمَةُ "contradiction" (تَنَاقُضٌ)، مُجَدِّدًا، تَأْتِي مِنَ اللُّغَةِ اللَاتِينِيَّةِ. وَالْبَادِئَةُ "contra" مَعْنَاهَا "ضِدُّ". وَ"dictio" مَعْنَاهَا يَتَكَلَّمُ أَوْ يَقُولُ. إِذَنْ، حَرْفِيًّا، التَّنَاقُضُ مَعْنَاهُ التَّكَلُّمُ ضِدَّ شَيْءٍ مَا. وَيَزِيدَادُ وَضُوحُ الْأَمْرِ عِنْدَمَا تُحَلَّلُ كَلِمَةُ "antinomy" (طَبَاقٍ)، الَّتِي تَأْتِي مِنَ اللُّغَةِ الْيُونَانِيَّةِ. الْبَادِئَةُ "anti" مَعْنَاهَا "ضِدُّ". سَمِعْتُمْ عَنْ ضِدِّ الْمَسِيحِ (anti-Christ)، الَّذِي يَعْمَلُ ضِدَّ الْمَسِيحِ. وَالْجُذْرُ هُنَا هُوَ الْكَلِمَةُ الْيُونَانِيَّةُ "nomos"، وَمَعْنَاهَا "قَانُونٌ". إِذَنْ، الْمَعْنَى الْحَرْفِيُّ لِكَلِمَةِ طَبَاقٍ هُوَ "ضِدُّ الْقَانُونِ". وَبِرَأْيِكُمْ، مَا الْقَانُونُ الْمَقْصُودُ هُنَا، بِحَسَبِ أَصْلِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ؟ قَانُونٌ عَدَمُ التَّنَاقُضِ. وَبِهَذَا، يَكُونُ الطِّبَاقُ انْتِهَاقًا لِقَانُونِ عَدَمِ التَّنَاقُضِ، وَبِالتَّالِي، هُوَ تَنَاقُضٌ. وَهَكَذَا، فَكُلٌّ مِنْ هَذَيْنِ الْمُصْطَلِحَيْنِ، تَارِيحِيًّا وَتَقْلِيدِيًّا - أَيُّ التَّنَاقُضِ الطِّبَاقِ - يَحْمِلُ الْمَعْنَى دَاتَهُ. لَكِنَّ لِلْأَسْفِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ، وَبِسَبَبِ الْخَلْطِ السَّائِدِ، صَارَتْ لِلْكَلِمَتَيْنِ اسْتِخْدَامَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ. وَكثيرًا مَا تُسْتَعْدَمُ كَلِمَةُ "طَبَاقٍ" كَبَدِيلٍ أَوْ مُرَادِفٍ لِلْمُقَارَقَةِ.

سَنُتَابِعُ هَذِهِ الدِّرَاسَةَ فِي مُحَاضِرَتِنَا الْقَادِمَةِ، لِنَرَى عِلَاقَةَ ذَلِكَ بِمَفْهُومِ اللُّغِزِ. فَفَهْمُنَا نَحْنُ الْمَسِيحِيِّينَ لِذَلِكَ مُهِمٌّ جِدًّا، إِذَا مَا أَرَدْنَا أَنْ نَتَمَكَّنَ مِنَ الدِّفَاعِ عَنْ حَقَائِقِ الْمَسِيحِيَّةِ فِي وَجْهِ نُقَادِ هَذَا الْعَصْرِ.

الدُّكْتُورُ أَرْ. سِي. سَبْرُولُ هُوَ مُؤَسَّسُ هَيْئَةِ خِدْمَاتِ لِيْجُونِيرِ، وَكَانَ أَحَدَ رِعَاةِ كَنِيسَةِ الْقَدِيسِ أَنْدْرُو (St. Andrews Chapel) فِي مَدِينَةِ سَانْفُورْدِ بُولَايَةِ فُلُورِيدَا، كَمَا كَانَ أَوَّلَ رَئِيسِ لِكَلِّيَّةِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ لِلِإِصْلَاحِ (Reformation Bible College) وَهُوَ مُؤَلِّفُ أَكْثَرِ مِنْ مِائَةِ كِتَابٍ، بِمَا فِي ذَلِكَ "كَلْنَا لَاهُوتِيُونَ" وَ"أَدَهْسِنِي الْأَلْمَ".